--- Houssam D'ine NOUALLI ---



حسام الدين نوالي

الطّيفُ لا يشبه أحداً



19

منشورات

ديهيا

قصص

الطّيفُ لا يشبه أحداً

الطيف لا يشبه أحدا، قصص

حسام الدين نوالي

Anzar12@hotmail.com

الطبعة الأولى 2015

الإيداع القانوني:

ردمك:

مطبعة

منشورات

ديهيا

لوحة الغلاف للفنانة زكية مرّكوم

حسام الدين نوالي

الطّيفُ لا يشبه أحداً

قصص

منشورات
ديهيا

الـفـهـرست

<u>إلى ثلاث نساء..</u>

- **الجنّة.. التي أشعلت امتداد الحكي بقُبلةٍ من أخمص القدم إلى أعلى الجبين: <u>أمي</u>**

- **والـ "حمامة" .. التي أيقظت سرب الفراشات في دمي: زوجتي.**

- **وتلك التي تحصي دقات قلبي بحروف الحكاية.. "القصة القصيرة"**

في البرزخ بين الصحو والمنام

د. عبد العزيز غوردو

هل يمكن الانفلات من نظام الأنظمة التبئيري الذي نسجه هذا "الطيف الذي لا يشبه أحدا"؟

رجاء لا تتعجل بالجواب!

- أهي دعوة للقراءة؟
- نعم؛ لكن فلتعلم أن للقراءة طقوسها الخاصة، فليس كل من فكّ أسطرة العبارات يستحق أن يسمى قارئا،

وليست كل عبارة مرصوصة إلى غيرها تستحق أن تسمى مقروءا...

فلتَرْتَقِ إلى صومعتك إذن، ولتندغم بطقوسك المكيافيللية اللذيذة، لأنك مدعو إلى المنطقة الممتدة بين الصحو والمنام تبعثرها جيئة وذهابا، دون إمكانية للانفلات، لأن ما اجترحه المبدع حسام الدين نوالي هنا، من لذائذ القول، لا يسمح، ولا يقنع، بغير معانقته أولى وثانية... وعاشرة...

ف"تيمات" الأضمومة – التي أشرقت على أراض موحلة - جراح غائرة عنيدة، وندوب عابرة لقارة المتن، جاءتنا عارية لتعيد للوعي معناه المفتقد، كما هي عارية ومستقلة الأدوات التقنيّة للوحات التكعيبيّة، (على حد تشبيه ياكبسون الرائع)؛ لكن شريطة أن تكون القراءة تفكيكية حفرية، لا تؤمن بنهاية واحدة وحيدة، حتمية، بل مجموع نهايات منفتحة على احتمالات الممكن المتعددة، وتتقن الإنصات إلى لغة الظلال المضعّفة الكثيفة... لأننا أمام كاتب يحترم قلمه، ويهتم بموضوعاته جيدا قبل أن يُرسلها إبداعا منفلتا من عقاله.

ثم ها اللغة المحتفى بها – المنفتحة على العالم كما يقول پول ريكور - ابتغاء انتشال ما تبعثر من الإنسان الأنطولوجي، الصاخب الضاج المجنون، في هاوية الفقد... تتفجر بالأسئلة الهاربة من الأجوبة السهلة الجاهزة؛ لأنها تؤمن بأن الأسئلة الحارقة لا ترضى بغير الأجوبة الحارقة، حتى لو اعتمرت قبعة الأدب والإبداع الشفاف. فالحكمة لا تقرع أجراسها لكل طارق، بل تعشق فقط من يعشقها وحدها حد الهوس، ويتأمل "أناه" في مرآتها ليكتشف "الآخر" فيه... الهارب منه...

فكل وحداتها التضاريسية تحكي رمزية الحس الانطباعي المشترك؛ وإن هي إلا طريقة أخرى للقول، وللتفكّر، في الموجودات، بعين تتقن التفرس في استعاراتها وانزياحاتها، ومغرية باستعذاب الإقامة فيما بين الصحو والمنام، رافضة نداء "جاك بريفير" بالعبور، لأن الإقامة هنا عبور من نوع آخر.

لصناعة مهرجان المتعة الحزينة هذا، كان على المبدع، حسام الدين نوالي، أن يعبر من وادي عبقر إلى وادي السرد، عبر حنايا ومدارات، قاسمها

المشترك صيغتها التأملية الفلسفية المغموسة بالحزن، قبل أن ينكتب في صور وأشكال متعددة ينوسها طيفه الذي لا يشبه أحدا، لأن فيه شيئا من كل واحد منا، ما دام الكاتب والمكتوب عنه والمكتوب له، واحدا في النهاية، وفي ذلك اعتراف بأننا جميعا ذلك الطيف (بصيغة المفرد أو الجمع)؛ مقيمين أو راحلين، وهميين أو حقيقيين... فذلك أمر لا يهم!

لذلك فإن الارتحال بين مدارات المتن، لإدراك المستوى الغائب فيه، لا تزيدنا إلا متعة وإغراء بمضاعفة التجوال، في أزمنة وأمكنة لا تهدأ إلا بعد أن تقنعنا بالانتصار، والانتماء، إلى الفتنة التي أهدتنا إياها نصوص بعناوين مشاغبة:

"أصبع الحرب" الذي يجعلنا نعيش حلما في حلم، أو بالأحرى كابوسا في كابوس، بنفَس ملغّز قاتم يُشعلنا لذة، في كل منعطف ممزق، والذي يتقن رسم البشاعة بالجمال؛

الكشف عن أعطاب المجتمع في: "حبات التين" التي انتثرت على سِيَر الخادمات، عرقا ودما ودموعا؛

هاجس الانهمام بالذات عبر رحلة "الوحيدون" التي تتكور على نفسها، مرتين، في قفلة ختام مشتهاة، وبالمناسبة فالمبدع حسام الدين من المبدعين الذين يتقنون "النهايات"، ولعلنا لن نذيع سرا إذا قلنا بأن القاص الجيد هو فعلا من يتقن قفلات الختام: الحضور القوي للفينومينولوجيا المرتدة إلى الذاكرة الطفولية عبر: "الطيف لا يشبه أحدا"، وليس عليه أن يشبه أحدا، ربما لأنه يشبهنا جميعا، كما افترضنا سلفا، وربما لهذا السبب بالذات – أي لأنه يشبهنا جميعا – اختاره المبدع عنوانا للمجموعة؛

ثم لحظات انتكاساتنا المثقلة بالفجائع، وصدى دويّها المتفرس فينا، بكل عجرفة وتعال، في: "آلتان"...

والبقية تحكي ذاتها بذاتها، بل بذواتنا نحن/لهوتها، وهي تتقن ذلك الحكي...

إنها شروط الإنتاج التي تنتصر للنص المائز الذي لا يتوقف عن الحفر في الذاكرة، كما الغراب، ليعلمنا كيف نواري سوءاتنا، بعد انكشاف الجانب

المظلم فيها؛ ذاك الذي يقلقنا جميعا لأننا نخشى مواجهته، هو بالضبط ما يدعونا حسام الدين نوالي إلى خوض تجربة مواجهته فعلا – ولو للحظات - وعدم الاكتفاء بالانطواء داخل قواقعنا البئيسة، الباردة، الكسيحة... ذلك أن هذه اللحظات قد تضخ في أجسادنا التي شاخت قبل الأوان دماء جديدة، وأنفاسا جديدة، حتى لو كانت أنفاسا من الإبداع الحزين.

الوحيدون

... وكأن الشمس تغرب مرتين، مرةً جهةَ يرقدُ الولي الذي يرعبني المسيرُ جواره، ومرةً في جسدي؛ وعند كل غروب، أرتمي داخل البيت، آكل، وأستسلم للرقاد.

فمنذ غادَرَنا والدي وأمي حزينة.

حزينة لأننا وحيدان من دون أبي، وحزينة أيضا لأننا اثنان...

انتقلنا للعيش مع جدتي، وأمي لم تكن راضية تماما، كانت ملامحها غامضة ونحن نحمل أثاثنا إلى الشاحنة بمعية رجُلين، وبين كل ذهاب وجيئة، من البيت إلى الشاحنة ومن الشاحنة إلى البيت، كان الحزن يحمل رداءاته إلى أمي، حتى خِلتُ لحظة أني رأيت عينيها مثقلتين بالدمع..

أما أنا، فكانت السعادة تحمل إليّ هداياها، لأني سأرحل في شاحنة، ولأني سأبتعد، ومدرِّس اللغة العربية لن يلحق بي أبدا.. أبدا..

مرّةً حلمت أن جِراء صغيرة تخرج من محفظتي وتحيط بأمي – الجالسة على برميل صغير- مشكّلة حولها دائرة، وكانت أمي ترشها بالحليب، وأنا أضحك كثيرا. وحين استيقظت كنت قد تبولت في الفراش، ولم تكن أمي في البيت، فاعتنت بي جدتي.

وجدّتي هذه امرأة عجوز، لا تفارق عصاها. كثيرا ما تجلس عند عتبة الدار وتسند ظهرها لركن الباب. كانت عيناها تدمعان على الدوام، تحضنني مرارا إلى صدرها وتمسح رأسي بيدها، وحين أهم بالنهوض تقبِّل جبهتي بفمها الأدرد المرتعش.

صارت أمي تتأخر. أسأل عنها جدتي، فتحضنني ثم لا تجيب.. وحين تعود تتكلمان كثيرا، بعدها ترفع أمي صوتها بقوة، تتوتر، فتصمت جدتي، تتمتم، وتنصرف...

ومرة اصطحبتُ أمي للحقول حيث الشغل وحيث تغيب. كانت تحدثني كثيرا، فلا تكاد تصمت، والطريق الضيقة

الغبراء تحمل في اتجاهنا ذا شاربين على حماره الرمادي، كانت كرشه مدورة وكبيرة، وبدا لي مضحكا. توقّف فتحدّث إلى أمي، كانت عيناه تلتفتان إليّ كثيرا، وحين تلتقي نظراتنا يبتسم لي..

نزل عن الحمار وأركبني، فأمسكت باللجام. أمي تمسح على ركبتيّ وتشجعني. وكان عليّ —كما قال ذو الشاربين– أن أجعل الحمار يطيعني ويفهم وينفذ ما أقول.

كيف؟

سأسير به إلى شجرة الصفصاف الضخمة عند منبع الماء ثم أعود سبع مرات، وحتما سوف يطيعني الحمار بعدها.

حين عدت كانا قد اختفيا، بحثت بعينيّ، لم أرهما، ثم لم آبه وواصلت العدّ...

الآن لا أعرف لِمَ كرهت الرجل منذ رأيته، وكرهت ابتساماته المتكررة، ولِمَ كنت أضرب الحمار مع أنه كان مطيعا..!

ثم حدثت أشياء،

فحين كثرت أسئلتي وقوِيَتْ، وبدأتُ أصرخ في وجه أمي، كان الفضاء يضيق ثم لا يتّسع لكلينا. فيما جدّتي بدأت تمرض كثيرا وإحدى عينيها ابيضّت...

الآن صرتُ أعيش مع جدتي المريضة وحيدين بعد أن رحلتْ أمي ذات صباح ولم تعد. كنتُ قد سألت عنها الأصدقاء، وبحثتُ في القرى المجاورة. ثم حقدت عليها كثيرا حين أيقنتُ أنها لن تعود..

وحزنتُ وكبر الحزن.

حزنت لأني مع جدّة هرمة ومريضة وحيدان بدون أمي، وحزنت أيضا لأننا اثنان.

لا أحد

أنزلُ السلم درجتين درجتين.
باب العمارة يظل مفتوحا. لا حارس. تحسست شريحتيْ الخبز داخل حقيبة الظهر وقنينة الماء والعلبتين الصغيرتين.

الحقُّ أن تناول وجبة تحت ظل شجرة بعيدا عن جدران البيت يمنح المرء ما يكفي من النشاط لأسبوع جديد.

أدخل الزقاق المفضي لشارع "الشهداء"، وسأسير مسافة نصف ساعة عابرا ساحة "8 مارس" لأصل منتزه "العمارين".. نظارتي الشمسية في الجيب الداخلي للمعطف. راديو صغير، القبّعة، الولاعة وعلبة السجائر، وساعتي اليدوية.

أتحسس، أفتش عن المفاتيح. لا أجدها في جيوب السروال، ولا المعطف..!! تبًّا! ربما نسيتها عالقة في الباب.

ثمة دائما ما ينغص حياتك.

أعود من نفس الطريق، ويداي لا تتوقفان عن التفتيش. آه!! تذكّرت أني حشوتها في الجيب الصغير لحقيبة الظهر. أتأكد. لكن... الباب هل أغلقته؟.. لعن الله الذاكرة الخَرِبَة. أحاول أن أتذكر، لا فائدة. أسرع بالعودة.

باب العمارة مفتوح كما هو. أصعد السلم. الباب مغلق. ألعن.. أنظر لساعتي اليدوية ثم أنزل السلم درجتين درجتين وأخرج. شابان عند عمود الكهرباء قالا شيئا وابتسما. اللعنة..! أعرف اللعبة جيدا.. عليّ أنا؟!

أسرع الخطو من أمامهما. أتغافل لكن في حذر. أنعطف في الزقاق، وألتصق بالحائط بمهارة. حتما سيركضان للّحاق بي. أنتظر صامتا. أنحني وأُطلّ باحتراس. ما زالا في مكانيهما. يتظاهران باللامبالاة. أنطلق. لا أسير في اتجاه واحد.

أبعثر اتجاهاتي. أحدس أن هناك شخصا ورائي لا يتوقف عن النظر إلي. أباغته باستدارة سريعة، أرى بنات يلعبن بالحبل وامرأة تفتح بابا رماديا. قط حُذاء الحائط يسير باتجاهي. أحمل حجرة صغيرة أرميه بها. يولي هاربا. فأُسرع. أبعثر اتجاهاتي كي أخرج للشارع. أقطعه. أصل الرصيف الآخر.

الجالس في المقهى قبالتي- ذو السترة الجلدية والنظارات الطبية- يشبه أحد الشابين الماكرين. الآخرُ جوارَه يتظاهر بالكتابة. أقف عند كشك الجرائد. أضع نظاراتي الشمسية، وأُميل قباعتي لمداراة الوجه. البائع لا يكف عن التحديق فيّ.
تبًّا..! لهفَتُه لمعرفة انتمائي مكشوفة. أموِّه. آخذ جريدة "الرياضة". لم أقرأها يوما. أفّ..! أبتعد قليلا. أنزع الحقيبة الملتصقة بظهري وألفها في الجريدة. هه..! من يتوقع الآن أني أذهب للمنتزه.!!

أسير ببطء. أنظر إلى الساعة ثم إلى الرصيف الآخر أو إلى الخلف، ثم إلى الساعة. أتظاهر بانتظار شخص ما. أجلس على كرسي في محطة انتظار الحافلة. الشابان في المقهى يتبادلان الكلام. يضحكان. وفتاتان واقفتان بجانبي الأيسر. ذات المعطف البني الطويل تتحدّث عن تأخر الحافلة. أوقن أنها تقصد حركاتي

في النظر إلى الساعة. تواصلان الكلام إلى أن تصل الحافلة. السائق يتسم بمكر. أحدس أن مكيدة تُحبك. أحتاط.. يرتفع الأذان فيتبعثر برنامج النزهة.. لا بدّ أن المؤذن متآمر معهم. أنظر إلى الساعة. ألعن. أسرع بالعودة من الطريق الأقرب...

الشابان ابتعدا قليلا عن عمود الكهرباء، ووقفا عند زاوية العمارة. هل قلتُ إنهما في المقهى؟ لا.. عفوا، لم يكونا هناك.. !! إذن كانوا أربعة.

أصعد السلّم. أفتح الباب وأدخل. أصفق الباب. وأرتمي على الكنبة.. أفكر في ما حدث: الفتاتان وسائق الحافلة. البنات اللائي يلعبن بالحبل والقط... فأسمعُ طرق الباب

-"من؟".

أُسرع. أفتح الباب.

اللعنة!! لا أحد.

حبات التين.

هناك اعتقاد شائع، أن الخادمات يتذمرن. التعب جحيم دائم، وأشغال البيوت بكل روتينيها اليومي. وقسوتها — تنفث الغيظ حبة حبة؛ هناك متعة تفقدها الخادمات: أنوثة الغسل والمسح والتقطيع والتصبين، فربات البيوت يبتسمن في كل ختام، حتى مع التعب، يلهثن ويبتسمن! ! الخادمات يختمن في حياد. لكنهن لا ينفجرن... وأبدا لن ينفجرن..

تصوّروا، ثمة دائما منفذ.. والله العظيم.. !!

صبيحة كل يوم، عليّ أن أستقل الحافلة رقم7 ثم 25. وأسير مسافة على قدميّ. أصل، فأصعد السلّم إلى الطابق الثالث، أطرق الباب الخشبي الأنيق وأنتظر. يفتح وأدخل؛ يتجه هو إلى غرفة، يغلق الباب، وأبدأ الشغل.

منفضة سجائر وطاولة ذات سطح زجاجي عليها كتيبات صغيرة، على الحائط لوحات مهلوسة (خطوط ودوائر ومساحات مطلية بالألوان..) ماذا تشبه؟ لا شيء! أواني فخارية بأشكال متنوعة على الأرض، فوق الأجهزة، على الطاولة، في الأركان.. صرت آلفُ أشياءه..

لا ألمس شيئاً. أبدأ من المطبخ. وليس في الأمر خطة ما. هي عادة فقط.

أنهمك. الأواني مكدّسة في الحوض...

أتوقف. أتأمل الصحن المعلق الذي تتدلى منه المفاتيح. متى يستعملها؟!.. عاداته غريبة. يمكث في الداخل طوال الوقت. في كل مرة أدخل، ينفرد في غرفة. وأسمع طقطقات آلة. لِمَ لا ينتهي؟! أشفق عليه، وأتذكَّر أخي الوحيد..

آه!.. كم مرّ من الوقت الآن!؟

وأشرد...

كانت الضفيرة تنط مع القفزات الصغيرة، وتبدو الحَجلة مثل رعّاش ممدد. زوجةُ أبي تملأ الدلو من البئر العالية،

تسير خطوات، ثم تفرغه في مشربة الفرس، تُرجع الدلو وتلتفت إليّ. لم تقل شيئا.. أنا لا أقترب من الفرس. فهي لا تعرف إلا الكبار.

أمي على ركبتيها تمرر يدها على حبات التين المنشور على بساط. ستشرب أشعة الشمس جيدا، ثم تجف..

- ..اِهتاجَ... نهضتُ مرعبَةً.. صوتُه أيقظ الطفلة مذعورة...
- أبوه توتر أكثر..
- هل سيأخذه؟
- والله ما أدري.. أعاد نفس الكلام أمس.!!
- ...يا رب..

تلتقط أذناي بعض كلام الكبار. تصلني الأفكار متقطعة، وأعرف أنه عن أخي. وحدَه في غرفة فوقية لا يعلم ما يدور. يُخرجونه، يُجلسونه تحت أشعة الشمس مثل حبات التين وينصرفون..

يسيل لعابه اللزج وهو يحدق في الفرس ويضحك. يضرب بيديه أو يحركهما مثل عصفور فيما لسانه يتدلى ويبتل صدره باللعاب...

كم مر من الوقت الآن؟!! ...

توقّفتِ الآلةُ عن الطقطقة فانتبهتُ. خرج. أختلسُ النظر إليه، لا يلتفت، لا يكلمني. وضع الشريط في القارئة فانطلق الصوت: آلات كمان وطبول ودندنات وخشخشة لا متعة فيها.. هل يتذوقها؟!..

أَشعلَ سيجارة، وتناول آلة التحكم عن بعد، يداه تعبثان بها. شرد لحظة قبل ان يضعها ودخل الغرفة ثم أغلق الباب. وبدأت الآلة تطقطق.

أمسح البلاط منحنية. أخلط الماء بمعطّر، وأتساءل ما به؟ ممسوس !!

من يرعاه إذن؟

كنت أركض، وأحمل قلبي المفجوع. أمي تتبعني. أوسع خطواتي وجِلَة. أقترب من الباب الخشبي الكبير. ألتفت. تلتقط أمي قطعة خشب، تقذفها. أتفاداها فأرتطم بالباب. ينغرز نتوء القصدير الذي يغطيه في ذراعي. صرخة، وأسقط. دم. تمسكني من شعري. أتأوّه، أفتح فمي وأصرخ. تلحق بنا زوجة أبي، تتوسل، وتطلق القبضة من شعري. تأخذني إلى المطبخ، تملأ الجرح بمسحوق القهوة والفلفل وأواصل البكاء...

كان أخي في ذلك اليوم قد اقترب من الفرس،

وأمسك ذيلها. لعابه لا يتوقف. ويضحك. لم ترفسه. وحين تحركتْ سقط هو على المشربة. جُرح ظهرُه، وسال دم من رأسه. وصرخ بقوة مثل صوت حيوان مفجوع بسهم. لحقَت به زوجة أبي. ولحقَتْ بي أمي لأني لم أحرسه..

حين رجع أبي تكلم بصوت مرتفع.. وكلهم تحدّثوا كثيرا. وتعشَّيت وحدي ونمت.

أنهيت تجفيف البلاط. وأفرغت ما تبقى من الماء المعطر في المرحاض، ثم دلفتُ الملحقة جواره للتصبين. أجلس على كرسي وطيء، رجلاي منفرجتان، يداي في الإناء لا تتوقفان. حرَكَتُهما وسط الرغوة تمنع خليط الأصوات من الوصول إليّ. حين أوقفت شرشرة الصنبور، انتبهت أن الآلة لا تطقطق. وقفت، وخرجت من الملحقة. اصطدمت عيناي به فجأة، وغضضت بصري. فسأل:

- أما تتذمّرين؟

هزرت كتفيّ وزممت شفتيّ. قلتُ: وأنتَ؟

اِبتسم، ثم أخرج لسانه فتدلّى مثل لسان أخي .. لكن لم يسل لعابه !

أصبع الحرب

دقائق ثقيلة تمخر الوقت، تحمل دفترا قديما وتمنحه للريح التي تمد أطرافها عبر النافذة المفتوحة على الليل.

رجلٌ هناك، عميقا في الليل، يقف قرب النافذة، يرقب فرحة القنديل ويحنّ لتراب الأقرباء.

يردد أغنية قديمة:

"يا بحار في قاعِ البحر .. يا بحار
أوقِد في الليل فانوسا
من سر المرجان والمحار.
...."

رجُلٌ هناك -والغرفة نائمة- تُخاتِله صور كثيرة وأحيانا غير مكتملة تعبر داخل رأسه وتغادر بسرعة: أيام الانتظار لترحيلهم إلى الشرق، زيارتُه لمدن الرمال الجنوبية، وصديقُه الذي يناديه "الضب" حين يرتدي زيّه العسكري، وفاةُ زوجته وابنته في نفس العام، ثم انتظار الحفيد الأول بعد تقاعده، والحزن الذي احتلّه حين مات الجنين في بطن أمّه...

تقلّصت حَدَقَتاه وتمتم ما يشبه صلاةً..

لمس سبابته اليمنى، وظل هادئا. إصبع -يشبه علامة استفهام- تجمّد على الزناد حين تربّص الموت به وبالرفاق في طقس الرهبة والبرد والرصاص..

رفع يده ونظر إلى السبابة في ضوء القنديل، فعبَرت أمام عينيه -سريعةً- لحظاتٌ كان الرفاقُ فيها يتشبثون بدمائهم، فيما الحياةُ كانت تذوي شهقةً شهقة، والأرضُ تنزف بالقتلى.

- "مرت خمس وثلاثون سنة ونيف على الحرب القذرة، وما تبقى: محنة إشعاع وحطام داخلي.. وخواء."

كان الليل يحاصر الصمت، والريح تعبث بالقنديل والستائر، فيما رجل هناك، يلقي نظرة للخارج، يقاوم العتمة كي يرى، يلمح الأشجار المسدلة بالريح، فيوصد نافذة ويمد جسده، ثم يسدل جفنيه ويرحل...

في الصباح، خرج من البيت، سار إلى ساحة وسط المدينة، وخطّ على الأرض دائرة كبيرة، فابتعد قليلا يتأملها لحظة ثم اقترب وجلس على ركبتيه، مسح جزء وقوّمه، ثم وقف وابتعد من جديد، تأمّل الخط الدائري الأبيض على الأرض ورجع، كان يبتعد قليلا ويعود، وفي كل مرة، حين يمسح ويعدّل دورة الخط، كان يلقي حبل الذكرى في أحراشٍ حيث الأقارب والرفاق والولادات الغريبة..

حفيدته الوحيدة في الخامسة، وجهها مدور صغير مثل ثؤلول، وعيناها واسعتان جدا، فيما يبدو جسدها الضئيل رهيباً...

وصل طرفي الخط الذي مسح جزءً منه وتمتم:

- كيف انفرطت خطوط النغم في الكون؟

وقف على خط الدائرة والْتفتَ.

كانت الساحة تبتعد عن خرسها وتتربص بالعابرين والزوار خطوة خطوة، وكان رجل هناك يدور سائرا على الخط

تماما إلى الخلف وعكس اتجاه عقارب الساعة، كان يسير ببطء كما لو يقلد مشي حيوان ضخم عجوز، يرتّل نشيدا قديما، ويحمل لافتة صغيرة، في أقصى يمينها علامة استفهام لا نقطة لها —مثل إصبع الحرب–، وفي أقصى يسارها ثلاث نقط أفقية، وبينهما فراغ. كان ملفِتا وغريبا في الساحة، وكان العابرون يلتفتون إليه، يبتسمون.. ثم ينصرفون.

رجُلٌ هناك وسط الساحة، يدور على خط فيما روائح الدم والرصاص تبني بيوتا للرفاق في ذهنه ويحزن. كره امتهان الحرب، وودّ لو يفرش الدائرة بزيه العسكري ليدوسه أمام العابرين، ولن يترفق به أبدا.. وفي كل دورة كان يشمخ الحزن فيه ويشمخ الحقد وتشمخ صور الراحلين وروائح الرصاص.

في المساء حين عاد للبيت، كان متعبا، وكانت وخزات كثيرة مؤلمة تقرص باطن قدميه، أكل قليلا، فتمدّد وراح يردد أغنية البحّار القديمة حتى أسدل الجفنين ونام.

وفي اليوم الموالي، كان هناك على الخط منذ الصباح، عكس اتجاه عقارب الساعة سائرا إلى الخلف، يدور ببطء، ويرتّل.. وكان سعيدا بهذا الطقس..

مرّ يومان، فانضم إليه أطفال في الساحة، وبفرح كانوا يرددون النشيد الحزين.. ومرّة توقّف شاب وشابة، فنظرا إلى الحلقة مدّة، دندنا بإيقاع النشيد وتحدّثا معا لحظة ثم اندفعا، يدا في يد ـ ودخلا إلى الدائرة...

بعد أسابيع صارت الدائرة تكبر، وسَرّهُ أنها أضحت تتواصل. في خطوات بطيئة وإيقاعية، عكس عقارب الساعة حتى بعد عودته للبيت، فثمّة على مدار اليوم مناوبون.. رسموا على لوح خشبي علامة استفهام غير منقطة وثلاث نقط أفقية، ووضعوا اللوح في مركز الدائرة.

والآن، صارت الدائرة تضم أعمارا مختلفة، ومهنًا وهوايات. بعضهم يتسلّى.. والآخرون يرددون النشيد في حزن.

فنجان السبت

"ساميا" زارتني هذا المساء، وانصرفتْ سريعة. أعددتُ فنجان القهوة. تأملتُه مليا. ما عاد صهيل الكافيين يوقظني. وعليّ انتظار منتصف الليل..

لفنجان القهوة سحر كبير. قطعة فخّار صيني يسكنها الليل. أرشف قهوتي بتأنّ. ومزيج "الوتار" وصاحبه يصلني مشوّشا ..

(قْلبي عامرْ .. فيهْ لْمسامر... آآآمكتوبي ...)

أطفأتُ المذياع. ثمّ أشعلته. وغيّرت المحطّة. "إمازيغن". تذكّرت (الهاشمي) بكثير من الحنين.. يااااه.. وتلك الجدة التي تدمدم لنفسها طوال الوقت في الركن

الدافئ على لبدتها، تعبق بخليط من روائح الأعشاب. عالَمُها خاص جدّا، تصنعه وحدها. وتعيشه وحدها..

أفتح مغارتها :

-الوقت صعابت آجدّة !!

لا تجيب ...

أردّد في خيالي: ما الذي تسرّه جدّتي لنفسها؟؟..

صرتُ أشبهها بشجرة الخوخ عند مدخل الدار، صامتةً، تغسل وجهَها حفنةُ التجاعيد. ترى ماذا يقول كل خط؟ !

أعادتني إليها:

-" شحال ما طال الليل يصبح يصبح " !! قالت .

اقتربت منها أكثر، وضعت يدي على ركبتها، وقلت :

-" الله تايلطف آجدّة.."

لم تجبني ..!

يبدو السواد هادئا داخل الفنجان .أنقر عليه بملعقتي الصغيرة. أدندن. تتشكّل دوائر صغيرة. مويجات متتالية تختفي بسرعة ...

كان "الهاشمي" يحدّثني عن الزربية جنوب المغرب حين منحني كتاباً للإيطالي (ماركو سانداريتو) أقلب أوراقه. وضع سبابتَه على رسم تخطيطي :

-هذا الصنف لم أجده إلا عند " سانداريتو".. لا أستطيع الجزم في أصوله. غامض وكثيف.. تماما مثل قطعةِ... (توقفَ قليلا)... قطعة شيء لا أعرف ما هو... مبهمة وفقط ..

-صمتٌّ ..(!!)..

دمدمت الجدّة. بصعوبة أتبيّن حديثها الذي تقوله لنفسها.. سمعتُ :

"... سرٌّ تحْكيهْ الغيمة لسكة المحراث... يِّيــهْ !"

لم أشأ أن أقطع حبل تفكيرها، طلبتْ ماء. قدّمتُه لها. شربت وهي تمسك بيدي. أعادت إليّ الكأس وظلّت يدها ممسكة بي. جلستُ. التحق بنا الهاشمي. ركّزَت عينيها على طرف اللبدة وقالت كأنها ما تزال تحدث نفسها:

-الزربية كتابْ مْرسوم.. هادي و عْتيق

-صمتنا ...

صمتت قليلا ثم استرسلت :

-في الجنوب هناك.. عند قبائل (آيت تيسينا) حيث الميل للرحيل هو الأكبر. وربما لهذا السبب الأبصار تنشدّ إلى الأمام؛ العيش مرشوش بسحر غريب. مثل كتاب نادر. قصير وكثيف؛.. الحياة هناك باب في الليل يفضي لأشكال عديدة من الطقوس. وللأنثى فيها مغاليق أكثر. لذلك فهي خصبة في كل شيء، نعم في كل شيء.

حين تزفّ الفتاة فإنها لا تلتفت للوراء. الالتفات – كما في أعلى الجبل – يعني الدوار ويعني الانجراف. لذلك فهي لا ترى أبويها إلا بعد عام كامل. الأمر لا يتعلق بغربة ما، إنه امتحان. وهذه إحدى المغاليق..

وطيلة هذا العام تتعلم الفتاة كيف تنصت للزمن. إنصاتها مقدّس ومتحفّز .ليس فتحة منسية. وليس ركنا مهجورا. إطلاقا؛ إنه رحلة الكشف. هم يستقبلونه ببساطة، لأنه تاريخي ولأنه تركة، فيورّث من غير انحراف، بصبر، وبحكمة ..

بقينا صامتيْن .

- طيلة هذا الإنصات – قالت- يكون الالتقاط باذخا. وتستعد الفتاة للحكي. على الزربية طبعا. إنه طقس غريب وفاتن. كتلة من الكلمات والجمل مغموسة في

اللون ومرشوشة في أشكال بدائية. الفتاة هناك تقطف من كل خطوة تخطوها طوال العام حرفا، قصصا أولى، حكايات جريحة وعتيقة، والريح التي تهب، تصنع منها جميعها حكاياتها على "المنسج" زربيةً ستحملها مع أشياء أخرى، الحناء في الغالب واللوز والتين المجفف في أول زيارة لأمها بعد الزواج ...

صمْت ..

أطلقتْ يدي، تركتُها على ركبتها. تناولتِ الكأس، شربتْ جرعة أو جرعتين. ثم شابكت أصابع يديها ورفعتْ عينيها..

-إنها سيرة الحكي الأمازيغي، قالت، كل لون رحلة، تلك العقد في طرف البساط خلافات بسيطة لم تدم طويلا. النقش الدائري حركاتُ البيت. التدبير ودور الزوجة. والنقط السوداء المحاطة بالأحمر سرٌّ. عادة ما يكون كلاما عن المعاشرة الزوجية.. إنها رموز للتواصل. مع الأم بالخصوص.. اِنْتبِها، وسط الزربية عادة ما يكون شكلا ذا رؤوس كثيرة ومثلثات غير مكتملة، إنه ابتهاج؛ إذا كان مربعات صغيرة أو ما يشبه المربعات تتوسطها علامة بخطّين متقاطعين فذلك شيء رهيب. جمل قصيرة جداً ومغموسة في الدمع. "مساحة

مقفرة"، هكذا تقرؤها الأم. قلبها رحيم، وتصر أن هذا الشيء مسلك معتم. الله يحفظ .

الخطوط على الحواشي نهايات. إنها ختام النسج. وبما أنها لن تعيد سيرة الحكي فإنها إحساس بالفقدان، فقدان التواصل وتعجيل بالضياع.. لذا عادة ما تكون مائلة وبألوان باهتة..."

سطح القهوة داخل الفنجان يبدو رقيقا. وغامضا أيضا مثل غطاء السماء. أرشف. لا أحبها باردة. أنحي الفنجان جانبا. العقارب جاوزت منتصف الليل. بقيت لحظة من غير حركة، لا أفكر في شيء تقريبا. تأملت هاتفي المحمول، على يمين الطاولة، تناولته وكتبت عبره رسالة قصيرة لساميا:

"ما أحوجنا لبدائية التواصل، وكم جميل أن لا يغزو الحرف قبائلنا فيخترق احد أسرارنا الجميلة "

بعد برهة: "بيب.. بيب.."

ردّت ساميا:

" ؟؟!!.. يبدو أن إرهاق نهاية الأسبوع نال منك، ما أحوجك لنوم هادئ. ليلة سعيدة ".

رددت بصوت مسموع: "ليلة سعيدة".. وأطفأت المذياع...

لن تموت وحيدا

"لا يصح للمرء الادعاء بشرف
وضمير بأن الموت نقيض الحياة"
ر. ماريا ريلكه

فرشَ ورقة الجريدة على الأرض، وضع الكيس البلاستيكي قبالته وجلس. أسند ظهره لشجرة الخروب. إلْتَفتَ خلفه. ثمّ عاد يحدق في البنايات المكدسة عبر شريط أفقي طويل..

لشجرة الخروب على التلة الصخرية سحرٌ خاص، ربما لوحدتها الغامضة وسط هذا الفراغ الموحش جوار المقبرة، أو ربما لشكل أغصانها الممتدة مثل يد عجوز جافّة بمئات الأصابع، يبدو فيها الجذع كساعد هرم تهدّل جلده، وبرزت عروقه خطوطا موحشة...

كسرت الصمتَ حوله كوكبةٌ تحمل تابوتا أبيض اللون تتجه لناحية المقبرة.

ـ لا إله إلا الله

ـ محمد رسول الله...

"لا بد أن الفقيد من أقصى الهامش–فكّر– عاش محروما وحيدا؛ فالمشيعون بالكاد يتجاوزون الثمانية."

وضع الكيس البلاستيكي على ورقة الجريدة، ووضع عليهما حجرة صغيرة، واتجه عبر منحدر التلة نحو المقبرة؛ بدت عليه ملامح حزن وأسى، كأنما يعرف المتوفى جيدا.

صلى مع الجماعة على الجسد الميت، وارَوْه التراب، ثم رجع إلى شجرة الخروب، وجلس يتأمّل البنايات المكدّسة...

أخرج من الكيس البلاستيكي حبلا أصفر. ربط طرفه حول غصن مرتفع. شكّل عند طرفه المتدلي دائرة المشنقة. تنهد مُريحا رئتيه. إلتفَت ناحية المقبرة، كان المشيعون قد ابتعدوا.

زمّ شفتيه. وضع يده على جذع الخروبة. نظر حوله.. ثم ابتعد عبر المنحدر واختفى في البنايات المكدّسة...

آلتان

قمت من نومي متعبا، ألهث، ومكتئبا، أتنفس بصعوبة. الكابوس كتلة ثقيلة تطاردني، تحاصرني، حتى أني صرت أكره المساءات كلها. لا أعرف سببا يجعل الحلم نفسه يتكرر، يتواصل ويتطور، فيكبر فيّ الرعب وأكتئب. يطاردني باستمرار وأفقد شهيتي تدريجيا..

في الطريق تباغتني صور حزينة من الماضي لا أستدعيها.. ويلحّ الحلم، يأتيني ثقيلا. أمعن ، لا أستبين صور الرجال، ولا نبرة الكلام والوشوشة، أستعيذ بالله، وأقرأ بعضا من القرآن. وفي العمل يرتمي جسمي الضئيل على كرسي وأحاول طرد الصور..

وضعت تحت المخدة ملحا وخنجرا لأُبعد عني الشيطان والجن، وتوضأت متحصّنا من الكابوس، ثم أسندت رأسي..

كنت أرقب عبر النافذة قطعة ثوب بيضاء تتدلى بين شجرتين، وأحصي الراجلين. فجأة.. صرير الباب الصدئ يمزقني.. ثم دخلوا. كانوا ثلاثة، وقفتُ، فصرخَ صوتٌ بقوة "**اِجلس!**" وجلست.. لم أكن أفكر في شيء، صرت أعرف الحكاية تماما، وكما توقعت، أحاطوا بي وتأملوني مدة. الضوء باهت، وعيناي تبحثان عن ملامح معينة، صدري يضيق بحيث صرت أتنفس بصعوبة، النافذة لا تكفي. أجلس على ركبتيّ، ويقترب شبح رجل. أحاول التقاط كلماته.. لا أستطيع.

ساد صمت قليل ، وتَقدّم إليّ أحدهم، ظلت عيناي مغمضتين، وصفعني بقوة، وضعت كفي على الخد، وكتمت صرخة قوية، ثم رفسني وتأوهت، فانهالت اللكمات عليّ، أحاول اتقاءها. لا أستطيع. يزداد شراسة. يركلني. يركلني. أتأوه. يركلني. يزداد الضغط وتزداد السرعة فأتعب. تخور قواي. لا أقوى. أتهاوى، ثم أنبطح بلا حراك..

يفرغ سطلا على رأسي فأستيقظ وينصرفون..

نهضت متعرقا، أخذت حماما باردا. متعب أنا، وأحس جسمي بليدا. حكيت ما يجري لزميل. تأمّلني. هزّ كتفيه وضحك، فضحكت أنا أيضا...

مرّت أيام والكابوس عنيد، نفس الحكاية، بتطور ضئيل. لكن بالمقابل، فشهيتي أضحت تقوى، ثم مساءاتي صارت أليفة. لا ملح ولا خنجر تحت المخدة.. وأحيانا كثيرة لا وضوء..

أرتدي ملابس ثخينة اتقاءً للضربات، جوارب صوفية أيضا وقفازات وطاقية سميكة.. أتكوم تحت غطاء، فأغدو مثل كرة وأنتظر.

الطيف لا يشبه أحدا

- **مِن هنا**–:

الوجه الذي يشبهني كصرخة متكررة تسلل مثل طيف، يلتمس الخلاص خارج هذا الصباح المقعد. كانت المدينة تستيقظ ببطء رجل انكمش داخل معطفه الطويل، يداه في الجيبين يسرع في المسير؛ تلذذت بمتابعته، وانتبهت أنه يشبه الطيف الراحل فضحكت. إلتفت هو ولم يتوقف. فقط تمتم وسار، ثم انعطف..

عيناي لا تفارقان موطئ القدم. تجاوزت مبنى المصرف فتصاعدَت الموسيقى من محل المخبزة، وأتتني معها رائحة الخبز الساخن مثل عنكبوت هرمة. اثنان يقتنيان وأحدهما ينظر إلي، وحين وصلت ألقيت السلام فلم يرد علي أحد ولم آبه..

طلبت "خبزا كاملا"، وللتوّ وصلتْ طفلةٌ ووضعتْ قِطَعها النقدية على طاولة الصرف صامتة والتفتتْ إليّ، ابتسمتُ لها وأومأت برأسي، ثم تسلمتُ لفافتي وانصرفتُ..

بالأمس، كان الليل الخريفي يكسو المدينة فتبدو عبر النافذة كركام بَلّلَهُ مطر أكتوبر، واعترتني نزوة طفولية جميلة: ألاّ أنام الليلةَ لأرقب انطفاء الأضواء عبر كل النوافذ المقابلة لي.

وعلى طول الليل، كانت البقع المضاءة تختفي تباعا، وأصررت محدقا في كل الاتجاهات بينما الوقت يتأخر دقة دقة، ومع كل انطفاء لبقعة الضوء في إحدى نوافذ العمارات المقابلة، كانت المدينة تهدأ.. تهدأ، وكان الليل يشمخ، والصمتُ يَلبس الحيّ أكثر، ومع كل انطفاءٍ لإضاءةٍ قُبالتي كانت متعةٌ ما تدخل جسدي، وكنت أغمض عينيّ متشبثا بذلك الخيط الرفيع بين الضوء والظلمة، أستبقيه وأمططه..، ثم أنتظر التالي.

تنطفئ بقعة مضاءة فأصعد سلم الفرح الطفولي وتسري فيّ حبات متع كثيرة، فيما الوقت يتأخر. وتقدّم الليلُ، وكبر الصمتُ، وانتبهت مع رنّة الساعة أن الفجر صار يخطو نحو المدينة، والنوافذ اختفت في الظلمة، بينما بدت — فجأة– نافذةٌ بعيدة مضاءة ووحيدة. أسندتُ ساعدي إلى النافذة وانتظرت.

أمعنت النظر فبدا لي ما يشبه طيف إنسان، وفكرت أن نافذتي وحدها مضاءة قبالته، فأطفأت النور، وانطفأ ضوء النافذة البعيدة أيضا، ثم أشعلت الضوء وأطفأته، فاشتعل ضوءها وانطفأ..!!

ههههه!! أعجبتني اللعبة فأعدتها بتقطع وتكررت.. وكانت دعوةً مبهمة لصداقة مبهمة، وفهمت أننا صرنا صديقين، وأنها تحية أولى وحوار بالغ التكثيف. ولذا قررت أن نلتقي في الصباح الموالي. في مكان ما. واستيقظت مع استيقاظ المدينة ببطء.

مرقتْ سيارة بسرعة وتابعتها بعينيّ؛ تتناثر حبات الماء مع حركة عجلاتها عبر الشارع الطويل المبلل ببقايا مطر البارحة.

أتوقف عند واجهة مقهى (le boléro). النادل يتحرك في الداخل، والزجاج نصف معتم. دلفتُ وأحسست بالدفء يحضنني، كانت المقهى خالية إلا من زبون، شبك يديه على الطاولة، وسرح يتأمل الشارع خلف الزجاج...

أخذت مكاني في ركن قصيٍّ، وضعت خبزي الكامل على الطاولة، وناديت النادل. ثم رحت أتأمل المدينة تحت سماء خريفية..

***

- مِن هناك-:

في الليل ينمو الصمت ببطء، ورويدا رويدا، تغدو الظلمة كحقل فسيح تنزف فيه مصابيح الشارع إلى آخر الليل.

و أرِقاً كان السيد "قاسم" يخطّ في رغوة الأرق منفذا للرحيل. و "نوال"، التي سافرت وتخلت عنه من غير أن يعرف سببا لذلك، هي التي كانت تنصحه بـ (الرحيل للداخل)، "فثمة إن تدربتَ شيء يهدِّئُك، وثمة إن هدأتَ مسلكٌ شاسع للنوم" -تقول نوال-

تقلب السيد "قاسم"، وأغمض جفنيه في دغل الظلمة وأرخى جسده الممدد.. لا فائدة، وعدّ من واحد إلى مئة، ومن مئة إلى واحد، وكرر، ورحل إلى الداخل، وعاد من الداخل.. ثم أيقن أن سلطان الأرق ، كسلطان النوم، غالب..

كان الليل يتقدم، وينحني -مع دقات الساعة- ويشيخ، فيما مطر خريفي هادئ يغطي المدينة كرِداء.

نهض" قاسم" وأشعل النور ثم أزاح ستارة النافذة، وراح يرقب قطرات الماء في ضوء مصباح الشارع.

كان خدر بطيء ما يزال يسري في خلاياه، وأحس برغبة في النوم، فعاد وأطفأ النور ثم تمدد. لكن وبسرعة أشعل

النور، فنظر إلى عقربي الساعة قبالته، ثم مدّ يده للزر فعاد الظلام، وأطبق جفنيه في العتمة...

تقلَّب السيد "قاسم" وعدّ.. ورحل.. وتاه.. لكن لا فائدة..

- أوووف!!

نهض متوترا، أشعل الضوء، وارتدى ما كان على المشجب، فأطفأ النور وخرج.

انكمش داخل معطفه القصير، وسروال الجينز، وسار في الشارع الممتد تحت مطر خفيف.

كان الصباح يخطو نحو المدينة ببطء، فيختلط ضوء مصابيح الشارع بخطوه، والشارع خالٍ وهادئ. داخل مقهى (le boléro) – التي يتناوب فيها ندُل للصباح وندُل لليل– كان النادل الليلي يردد في موّال:

جهد الصبابة أن تكون كما أُرى

عينٌ مسهّدة وقلـــــب يخفـقُ

وكان صدى الصوت – من داخل المقهى الفارغة– يصل مخلوطا ببحّة جميلة إلى السيد "قاسم" فيطرب، وردد صامتا:

"أرَقٌ على أرقٍ.. ومثلي يأرقُ.."

ثم خَطا نحو المقهى ودخل، كان دافئا، وبدا فسيحا لفراغه. أخذ مكانا جوار زجاج الواجهة وطلب النادل، ثم شبك يديه على الطاولة وغاب في رقدة المدينة التي تغفو على بقايا مطر خريفي، وانتظر استيقاظها البطيء ليرحل.

اللوح غير المحفوظ

تتوهج رائحة النداوة والظل بين جدران الغرفة التي لا يضيئها غير انفراج الباب ونافذة عُليا مستطيلة. كل الأطفال خرجوا واحدا تلو الآخر، وأنا أجلس على الحصير، أمتطي صهوة الغصّة والتمزق وحيدا.

سيتجمعون على ضفة النهر، سارة ستخط على الرمل شمسا وجاموسة، وسعد سيشكّل من الطين وجه عروس، فيما يوسف يرسم عيون أطفال ويضحك...

يداي البضتان الصغيرتان تمسكان اللوح الخشبي ذا اللون البني الفاتح، أتهجى خطوط (السمخ) الرهيبة. ويهطل مطر اللعنات والعويل في صدري.

سارة ستنظر إلى سعد وتقول عني أني أشكّل أطفال طين لا يعبث بها الليل والندى، وسيغضب سعد، ويحدق يوسف في عيون أطفاله.

عينا الفقيه (السي محجوب) رهيبتان. يتربع عند المدخل على لحاف مرتفع عن الأرض قليلا، يضع عصا جهة اليمين ويهدهد رأسه باستمرار، فيما يداه تعبثان بالسبحة.

يلتفت للخارج ليرد سلاما.

قلبي الصغير الذي يرفّ مرعبا يوقن بالقدَر الرهيب، ويشيعني نبضة نبضة نحو مثواي، وينشر في عروقي الذهول والبكاء.

تدخل امرأة ملثمة للغرفة الندية متشحة برداء أبيض تزيّنه فراشات سوداء صغيرة. تُقرفص جوار (السي محجوب)، ويوشوشان.

ينظر إليّ فأصعد درجَ الذبول.

يُسَمي الله ويقف.

فيرفّ قلبي الصغير وينفجر الدمع في عينيّ، ويرتفع النشيج..

تنظر إليّ المرأة.

يدخل (السي محجوب) الباب الضيق المفضي لغرفة الجلوس والأكل والنوم... فتقف المرأة، تسوي رداء الفراشات. تلتفت للخارج، ثم تدخل الباب الضيق أيضا.

أفكر في الهروب فتتساقط عضلاتي. تخنقني كُتل الوحدة وتنشر رداءاتها حولي وعليّ. أبكي ويبتل صدري بالدمع.

ستقول سارة إنها حقل ذرة
ويرد يوسف: أصير جدولا
ثم صامتا يلتفت سعد.
ويقول يوسف صرتُ الآن مطرا
وستسأل سارة: من يكون عباد الشمس؟
لا أحد... لا أحد ... لا أحد...
وتركض باتجاه غابة القصب.

ويحطم سعد وجه العروس ويشكل طفل الطين من جديد.

تخرج المرأة من الباب الضيق وتلتفت إلي. ويحمل إليّ (السي محجوب) برتقالة، ويمسح على رأسي فأطمئن.

قبّلتُ يده الكبيرة، ثم أمسكَتِ المرأةُ يدي وخرجنا، سرنا معا تاركين الفقيه وغرفة النداوة والظل، وانعطفنا في زقاق جانبي، فأطلَقَتْ يدي وأطلقتُ ساقَيّ للريح.

لم يكن غير مروان جوار النهر، وسعد كان هناك على الطريق بعيدا عن النهر. وضعتُ البرتقالة جنبي وجلست أخط على الرمل كائنات لا أحد يعرفها غيري، وأمسح؛ ثم أشجار برتقال كثيرة، وأمسح؛ ثم شمسا وفراشات صغيرة، وشكّلت طفل طين بعينين واسعتين، وضعتُه وسط دائرة الشمس بحيث تصير الشمس بيته.

تدحرجت برتقالتي في اتجاه مروان، كان يرتب دائرة الحجارة، فسألته عن سارة ويوسف، مدّ لي البرتقالة ونظر إلى طفل الطين، ثم قرص أرنبة أنفه، و ضحك بخبث.

الباب الكبير

من بعيد تبدو القِبابُ- ذات اللون الأبيض المخلوط بصفرة والمعفّرة بالغبار على الدوام- مثل حشد نعاج مكدّسة. وخليط الأصوات عبر المكبّرات المبحوحة تتزاحم. جَلَبَة، صيحات ونداءات، موسيقى، كمنجات... فيما السور الحجري بارتفاع المترين تقريبا يحضن كل الجلبة. الخيام، الشمسيات، البشر، السلع، العربات المدفوعة باليد، والضجيج.

أصوات. عرق. وغبار مرتفع...

التفتَ قبل أن ينعطف باتجاه صف مقاهي السوق. مُلاحقان خلفه. خُيّل إليه أنه سمع شتائم. بصعوبة تفادى الاصطدام بامرأة ملثّمة خارجة من خيمة. ناور لتفادي الأوتاد. نتوء صغير في حذائه. يتجاهل ألمه. يجري في خط مستقيم. يلتفِت، ملاحقان خلفَهما مراهق. ويرفع سرعته.

رائحة السمك المقلي والشاي والحريرة على طول الصف. فجأة ينعطف، يتقدّم نحو الناحية الشمالية. يلتفت، يصل ملاحق أوّل طرف خيمة عبد السلام (مُول الكفتة)، ثم آخر،

ثم كوكبة صغيرة. الهارب يبلع ريقه بصعوبة، يقفز فوق قوارير (الزيت البلدية). يصرخ البائع و يلوّح بيديه متوترا يلعن بحقد، يسمع جلبة خلفه، يلتفت، يصطدم به الملاحق الأول، لا يتوقف. تجحظ عيناه. يزفر بخشونة. يبحث عن الهارب. الهارب يتقدّم. يتوقف عند ملتقى طريقي (الحجّامة) و صاحب (النرد). يتردد ثم يركض جهة يمينه. يلتفت ثم ينعطف باتجاه (الخضارين). خليط النداءات والأثمنة. يرتطم بعربة مدفوعة. يصرخ. ثم يواصل الركض. يقتحم الزحام. يخترقه بصعوبة. ملاحق أول. ملاحقان ثم كوكبة. سيل يتدفّق من الملاحقين. يخرج من الزحام. رجلاه مُجهدتان. يدخل خيمة بائع الأحذية البلاستيكية. يخرج من طرفها المقابل منحنيا. وصل ملاحقٌ، توقّف. التفت إلى الاتجاهين. عيناه تبحثان عن الهارب. لحق به آخران.. ثم كوكبة. اختلاط. جلبة وضجيج. أشار صاحب الملامح الصحراوية بيديه. حركهما بعصبية في اتجاهين، قال شيئا. وافترقت الجماعة مجموعتين. سارت كل منهما في اتجاه. تردّد بعضهم. اثنان رجعا عبر طريق الخضارين. آخر توقف. ثم رجع هو الآخر. الهارب مختفيا عن الملاحقين، وقف بجانب شاحنة صغيرة. انحنى، يداه على ركبتيه. بزق. فتح فمه ليتنفس هواء أكثر، ورفع بصره جهةَ مَوقِف شاحناتٍ وعربات أخرى. سار باتجاه السور. توقف. أقعى وأسند ظهره. يلهث مرهقا. فتح يده. عدّ الأوراق

الندية بسبب العرق. وقف وحشاها في جيب السروال. ثم جلس على الأرض. خلع حذاءه ومدّ يده داخل الحذاء يمس شيئا. بحث بجانبه. تناول كاغدا، ثناه مرات ووضعه على النتوء المؤلم. ثم لبس الحذاء. خلع معطفه الأسود ذي الخط الأصفر أعلى الظهر، كوّمه وتركه عند السور.. تسلل عبر الفجوة بين خيمة وشاحنة فورد. وجد نفسه أمام بائع خردة. توقّف. التفت خلفه فبدا مطمئنا. وصله خليط أصوات منبعثة من مكبرات مبحوحة ثم واصل سيره. نداءاتٌ، كمنجات، بندير، خليط أصوات.. بائع أشرطة يجرب للشارين ويمدح كل المغنين. توقف أمام "كرّاب". تناول الكأس النحاسية، عبّها في ثلاث جرعات. استزاد. ناقوس "الكراب" يبعث برودة رائعة. مدّ قطعة نقدية ثم واصل المسير...

مرّ بجانب قالع الأضراس الذي يعرض نماذج عالجها بالكُلاب وقارورات التخدير. ثم العشاب. العشاب ليس هو الفرمسيان، الأول مرتّبا علبا بلاستيكية مملوءة بخلائط الأعشاب المطحونة. في كل علبة ملعقة. والفرمسيان ترَكه بجانب بائع الأشرطة يفرش على الأرض سلعه: علب دواء لا تواريخ لصلاحيتها، عقاقير، مراهم، أقراص، نظارات طبية، و فك أسنان إصطناعي...

تجاوز صف الجزارين ودخل صف الخضارين. لفته أحدهم يأكل الماندرين. يقسمها بضربة واحدة مُدخلا ابهاميه

فيها من دون تقشير، ثم يفتح فمه ويضغط بأسنانه، يتناول لبّها ويقذف القشرة للخلف...

- **بالَك...بالَك..**

يفسح الطريق. تمر عربة مدفوعة. يتقدم. ينعطف ليتفادى الزحام. يتجاوز الحجام الذي يمتص الدم الفاسد من قفا الجالس بهدوء تحت خيمة واطئة. ويسير باتجاه صف المقاهي. بدأ دخان الشواء يرتفع. نادل يضع في ثنية قبعته أعواد النعناع، ويحمل صينية شاي وإسفنجا في طبق آخر..

يتجاوز المقاهي. يقف عند مدخل سوق البهائم.

-" **أبْريد .. أبْريد..**"

يخرج رجل مشمّر، عريض، يسوق ثورا ومعاونه يمسك بالذيل ويصيح ليُفسَح الطريق.

-" **أبريد .. أبريد..**"

يدخل. يتأمل الوجوه حوله. لا يتقدم كثيرا. كهلٌ في جلباب يبدو عنقه عريضا تحت عمامة موضوعة بشكل سيّء يتسلّم ثمن بقرة مبيعة.

يقترب منه. عيناه تتحركان داخل محجريهما. يلتفت كثيرا. يختلس نظرة إلى الكهل ثم إلى الباب الكبير الذي دخل منه...

رجل ينتظر "مامبا دْوُويا"

حكى "البوهالي" هذه القصة في نادي المرسى ذات خريف، وتعرفون أيّ بوهالي أقصد، كان في تلك الأيام لا يبرح النادي إلا ليجلس على صخرة الشاطئ المدعوة (صخرة الخضِر) يغني أغانٍ شعبية. وكما تذكرون كان خلاسيا يشرب كثيرا.

في ذلك اليوم، لم يتحدث عن السنوات العشر التي قضاها في السجن؛ وكان المهدي ورفيقاه يلعبون ببطء لعبة "البارتشي"، وأنا على مقربة من النافذة المشبكة أرقب امتداد الماء. كان الليل يقترب بطيئا والسماء تبدو رمادية تقريبا.

جرّ كرسيا، وتجرّع الكأس التي كانت في يده دفعة واحدة، وضعَها ثم مرر ظاهر كفه على شفتيه، وجال بعينيه في قاعة النادي. كان يدندن وينقر على الطاولة، فيما رأسه الغارق في قبعة يتمايل بإيقاع..

اقتربَ من النافذة المشبكة، مدّ بصره عبرها وتمتم فالتفتُّ. كان يرتدي معطفا طويلا سيّءَ التفصيل، وسألني إن كان يمكن أن يجلس ثم جلس قبل أن أجيب.

أشعل سيجارة وقال: "حكايا البحر حزينة !" والتفتَ إلى النافذة وسكَت...

بدت لي أضواء باخرة بعيدة تترنح، وغير بعيد كانت المراكب الراسية تتململ بفعل حركة الماء.

التفتَ إليّ، ثم إلى النافذة، ومد أصبعه جهة الباخرة القديمة "فورتاليزا" التي رماها البحر والريح يوما فانشطرَتْ؛ وسأل:

- تُشبه مَنْ فورتاليزا تلك؟

وحين رفعتُ بصري إليه أومأ برأسه فيما يشبه دعوة للكلام، وبدا لي حينها حزينا جدا. قرّبت إليه المنفضة فنقر داخلها السيجارة وسقط بعض الرماد، ثم بلع ريقه وأكمل:

- أنا أشبه فورتاليزا وإن لم آت من البرازيل – مثلها- محملا بالسلع.

ولأن لا أحد كان يعرف شيئا عن حياة البوهالي قبل السجن، فقد كدتُ أسأله من أين أتى هو، وترددت.

كان ينظر إلى فورتاليزا مرة، ومرّة يحدق في عينيّ، وتكلّم عن بحّارٍ من عائلته أبحر إلى الكونغو واختفى، وعن زوجته وطفله الرضيع فيما بقيت صامتا لا أعرف أي إحساس بالثقة أثَرته فيه ليحكي. نفثَ دخانا للأعلى مغمضا عينيه برهة، وتأملت وجهه الذي احتلّتْه خطوطُ التجاعيد بعنف. فجسده لم يهرم بعد، وتجاعيده تبدو مبكرة.. فكان أشبه بمزارع أمازيغي ممشوق.

فتح عينيه، ومد يده يرشف من قهوتي الباردة، فطلبت له فنجان قهوة واعترض، ثم نظر إلي وسألني إن كنت أعرف سفينة تجارية تدعى "مامبا دوويا" فنفيت، وأردف أنها تعني "ذنب القرش"، وأن البحار الذي اختفى في اتجاه الكونغو كان من طاقمها، وكان أيضا زوجا لأخته.. ولم ينجبا لأن زواجهما قبل الاختفاء لم يتجاوز الشهرين إلا بقليل، لكن أخته تلك، –وكان اسمها "غيتة"– كانت تعتني بالرضيع (ابن البوهالي) تماما مثل أم، وتهتم بالبيت أيضا.. وكانت مرحة.

ومع ذلك فإن زوجته لم تكن تثق فيها كثيرا، وتقول إن تصرفاتها غريبة.

حكت يوما للبوهالي كيف بكى الطفل حتى كاد يختنق، لأن غيتة ضغطت قبلة طويلة.. طويلة جدا على شفتيه الصغيرتين؛ وكان البوهالي يردد:

- أوووه.. !!

ثم لا يضيف شيئا.

وغيتة التي بدأت تفضل تناول الوجبات منفردة، صارت عصبية، وأحيانا تكبر رغبتُها في البكاء فتتكور في مكان وحيدة وتبكي بمرارة، من دون سبب.

حرّك البوهالي رأسه وهو يضغط عقب السيجارة في المنفضة وقال:

- حقا كانت حزينة.

ورفع عينيه ثم أضاف:

- ربما كان المرض يدب إليها

وسكت..

كان البوهالي يشك؛ وأيقن حين وجدها يوما وهي تحضن الطفل وتُخرج ثديها وتحشوه في فم الصغير الذي كان يبكي أنها ممسوسة، وبعد وقت، صار شائعا أنها مصابة بلوثة عقلية، فكانوا يحبسونها في إحدى الغرف.

قال البوهالي:

– كانت تتكور وتبكي بمرارة، وكان الرضيع يسمع صراخها فيبكي. تصوّر، كان كل شيء في البيت، وداخلنا أيضا

يبكي.. أوووه ! كان الجيران خلالها يواسوننا، في البدء يترددون على البيت كثيرا، يحملون طعاما إلى غيتة، ويطأطئون رؤوسهم مشفقين وهي تأكل. ثم صار ترددهم يتناقص مع الوقت، وحين أصادف أحدَهم خارج البيت، يسألني عنها، فأقول: "لا شيء.. لم يتغير شيء" ثم يتمتم صلاة وينصرف.

صمتَ البوهالي لحظة، والتفتَ إلى المهدي ورفيقيه الذين يلعبون "البارتشي " ثم قرّب وجهه إلي أكثر وهمس:

- حكايا البحر حزينة.

كانت أضواء الباخرة البعيدة تقترب، وصرتُ أتبين شكلها أكثر، فيما داخل القاعة كانت موسيقى خافتة تتحدث عن الغربة وعن الرحيل.

وسألته: ألم يزُر غيتة طبيب؟

ولم يجبني.

صمتَ طويلا ثم قال:

- حل الصيف وصارت غيتة تخرج إلينا وتجلس وتتحدث، لكنها ظلت عصبية.. مرّةً حملَت الطفل، ألقمَته ثديها وكان يبكي، رأتها زوجتي فصرختْ وركضتْ وأمسكتْ

بالطفل، لكن غيتة تشبثت أكثر، وضغطته إلى صدرها، وكانت تضحك.

– **دَعي الطفل –** صرختْ زوجتي– **اتركيه سيختنق.**

وتضحك غيتة.

– **دعي الطفل أيتها المعتوهة، وااو.. هذه المجنونة ستقتله.. ستقتلينه..**

وتضحك غيتة..

وتصرخ زوجتي

وتضحك غيتة

ودخلتُ، فرأتني غيتة، ووضَعَت الطفل على الأرض صامتة ثم دخلتْ إلى الغرفة.

صارت زوجتي تخشاها، وتتجنبها، وكانت تحرس الطفل أكثر، وتحكي لي وللناس ما يجري، لكن غيتة صارت تتصرف بغرابة، ففي إحدى الليالي حين أحسستُ بحركة داخل غرفة النوم، أشعلت الضوء، وكانت هناك قبالتي تماما، غيتة مستندة إلى الحائط وعيناها جاحظتان. سألتُها ماذا تفعلين هنا، فقالت لا شيء، ونهضتُ بسرعة، أمسكتها من شعرها وتألّمَت، وصرختُ فيها، وغضبتُ، وأقسمتْ أنها لن تعود، ولن تدخل غرفة النوم أبدا.

في تلك الليلة كانت زوجتي خائفة، والطفلُ يصرخ، وبكتْ زوجتي لأن أفكارا سوداء راودتها. هدأتُها، فأرضَعَتِ الطفل حتى نام، ثم وضعَته بيننا والتصقتْ به، ونامت..

وبقيت أنا مستيقظا طوال الليل، بأعصاب مُثارة، أفكر في هذا الوضع الذي آلت إليه حياتي ثم قررت أن أطرد غيتة من البيت.

بعد يومين، استيقظتُ فجأة في الليل، فلم أجد زوجتي جنبي، ولا الطفل. بحثت عنهما ولم أجدهما، وفتحت غرفة غيتة، ولم أجد أحدا، فارتعشت.. لم أعرف ما الذي ينبغي فعله آنذاك. فخرجتُ تحت ذلك المطر الليلي الكثيف أوقظ الجيران أسألهم ويسألونني كثيرا، وأنا لا أجيب في الأغلب، فقط كنت أبحث عن زوجتي وطفلي.. وأبحث عن غيتة.

ورجوتهم أن يبحثوا معي، فتوزعنا في القرية وبحثنا، وسرنا مسافات، لكن لم نجد أحدا منهم."

صار وجه البوهالي أكثر حزنا، وبدا لي بريق في عينيه كذكرى مؤلمة تشبه الدمع، فيما يدٌ على الذقن وأخرى تمد أصابعها مفتوحة على الطاولة كجذر قديم.

ركز عينيه على الفنجان البارد وقال بتأنّ كبير:

"كان البرد يغزوني. والليل لا يرحم. وابتعدتُ سائرا نحو الساحل، أجمع ما تبقى من قواي وأجمّعها في السمع علّي وسط

المطر ولُهاثي ودقات القلب أسمع شيئا، صرخةً مثلا أو نداءً أو وقع أقدام..، وكان وجه الطفل قبالتي، وزوجتي تحضنه، فيباغتني الدمع ويختلط بالمطر على وجهي.. ويحضرني وجه أمي – رحمها الله-، وأتصور الحزن الذي سيحتلّها لو رأت غيتة الآن، فأبتهل.. وأواصل السير..

أووه..!!

وعدتُ للبيت منكسرا، أحمل الحرقة والسؤال معا. وكان جيرانٌ قد تجمعوا هناك، بعضهم يرسم للحكاية ألف وجه، وبعضهم يحمل الحزن والسؤال الذين أحملهما.

بعد أيام، ألقى البحر جثة الطفل، وبكيت. بكيتُ لأن فجيعة غرقهم جميعا كانت أكبر من تصوّري، وبكيت لأني عاجز التفكير، وبكيت لأني وحيد هناك أدفن طفلي لا أعرف ما الذي حدث..

ثم صارت أفكار سوداء تسكنني، وخشيت أن يفاجئني بها قَدَرٌ ما.. فسافرتُ"

- إلى أين؟
- إلى هنا
- هنا بحر، والبحر لن يسعفك على النسيان.

- في البلدة ميناء للسفن التجارية، وفي كل يوم أنتظر عودة "مامبا دوويا"، لأعانق زوج غيتة، وأحكي له عن زوجتينا، وعن ابني الذي دفنتُه هناك.

قفزَت عيناي فجأة إلى صخرة الخضر التي يجلس عليها البوهالي يغني، ونظر هو باتجاه البحر وصمتنا معا، وطال صمتنا لحظات، تذكرتُ خلالها حكاياته عن سنواته العشر في السجن، ثم التفتّ وسألته عن سبب دخوله السجن، فحدق في عينيّ بعمق، ووقف، ثم سار دون أن يتبس بشيء، وطلب من النادل قنينة خمر "النورس".

قال النادل: هل ستدفع؟
فأجاب: على حساب مرافقي !
نظر إلي النادل وأومأت برأسي.

وضع القنينة تحت معطفه الطويل، وانصرف دون أن يشير إليَّ أو يودّعني وخرج.. وبقيتُ شبه جامد يخدرني حزن البوهالي. ووصلني صوت باخرة ترسو على الميناء، فأدرتُ الكرسي باتجاه المهدي ورفيقيه وقلت:

- هذا البوهالي شَطَرَته الأحداث بقسوة.

ضحك المهدي، والتفت أحد رفيقيه وقال:

- من يصدق حكايات البوهالي يا رجل..؟ !

وابتسموا جميعا، ثم واصلوا اللعب.

في الخارج، كان البوهالي قد بدأ يحتسي "النورس" على صخرة الخضر، ويدندن أغان شعبية. وينظر باتجاه البحر عميقا نحو الأفق.

ملامح الحيطان

" سمراء هي من كتبت على الحائط أولا
وأنا أغرمت من بعد.

***

حبة طبشور أبيض بحجم "حمصة"، وسمراء ترسم على الأبواب في الزقاق الذي نسكنه علامات بخطين متقاطعين يتصورها رأسانا الصغيران علامات تدلنا على الطريق ناحية ساقية الحي، ونضحك.

***

صرخ أبي في المساء: (**لا تفعل!**)

واقترب من المنضدة الصغيرة التي وضعتُ عليها الكتاب المصوّر مفتوحا أنقل منه أشكالا مختلفة لحرف الميم إلى دفتر المدرسة، وأردفَ:

- تنظَّمْ مثل خلق الله يا ولد، أُنظر إلى خربشاتك **!**

ونظرت إلى الدفتر أردد في ذهني "خلق الله"

- الدفتر لواجبات المدرسة فقط، والطبشور ليس للجدران... واه **!!** .. لم يتبقّ إلا هذا يا وجه الـ..."

كنت أنظر إلى يده التي يحركها للأعلى ثم للأسفل وهو يتحدث، وأكمَلَ عقلي الصغير ما لم يقله أبي : "يا وجه البلاط، يا وجه الصحن".

***

لم أكن بعد أحدق في المرآة كي أتأمل هذا الوجه الذي خُلق من غير نتوءات، صفحة مسطحة بثقوب غائرة، أنظر من الثقبين العلويين وأتكلم من الثقب الأسفل، وما كان وجهي – بعد– يرعبني مثلما يرعبني وجه أبي حين يصرخ: "**لاتتحرك !**"، أو وجه أمي المريع حين تصر على عدم مرافقتي لزيارة أو حفل؛ فأظل وحيدا في الزقاق بلا رفاق، أرسم منافذ لسعادتي بالطبشور والحيطان.

صرت أكتب أرقاما وكلمات، وصرت أرسم ما يشبه الإنسان والنخل والمنازل وأبوابا موصدة وأضحك.

وفي المساء يصرخ أبي "لاتفعلْ !.. يااه.. يا وجه الـ... "

وأُكملُ العبارة.

***

سمراء كبرت..

وتغير كل شيء.

لكني أذكر أنها هي من كتبتْ على الحائط أولا. وأنا أغرمتُ من بعد، وصرت أرسم قلوبا مطعونة، وأكتب حرف السين كبيرا بالأحمر، وحرف الباء يقطر دما.. ثم اختفي من الزقاق كي لا يراني أحد. ولم أعرف أبدا أن لا أحد كان يقرأ حرف السين ولا الباء على الجدران لأن خربشاتي لا تشبه الحروف على الإطلاق. ولذا كنت فيما بعد أخجل كثيرا من دفاتري و"خطوط الدود" التي كنت أرسمها – مثلما يقول أستاذ التاريخ ساخرا، وأردد بعده في صمت "خطوط الدود" وأنكمش.

كانت حصة الألم تكبر، وتتراكم مرارة الخط حتى غدت الكتابة عادة سرية أتفنن في إخفائها، وأحرص ألا يطلع أحد على ما أخطه إلا في أوراق الامتحان..

***

بالمقابل..

فإني في قمم خجلي من الحروف ومرارتها، وبفعل تراكم الألم تدربتُ على بناء قناعة أيقنتُ مع طول الوقت وميولاتي

الفكرية والابداعية أنها "الحقيقة". أحاسيس تضخمني.. أحاسيس مبعثها وجهي الذي يشبه البلاط ويشبه الصحن.. وجه يأبى النمط الواحد، فأحمد الله وأفخر.

فبإمكاني في أوقات كثيرة إعداد مسحوق الطبشور وملمّع الأحذية وفرشاة دقيقة لأمارس "لعبة الملامح" التي كانت مساحة للتجريب والتجاوز، والتي ستغدو فيما بعد مساحة للإخفاء والتواري.

كنت أقف قبالة المرآة كي ألبس بفرشاة دقيقة ملامحَ أحددها سلفا، وأخرِج للشارع كل مرة بوجه.

ولأني بدأت أنشر نصوصي الإبداعية الأولى في جرائد ورقية ومواقع رقمية وأحتاج بالضرورة لصورة مرفقة، فإني نبشت عن صور المبدعين في كتب التراجم والبيبيوغرافيات وسهرت كثيرا وعملتُ واجتهدت لأكثر من خمس سنوات في البحث والمقارنة ومراجعة الصور والكتب والمجلات كي أستخلص الملامح المشتركة العميقة للمبدعين حتى استقر مجهودي على وجه المثقف الذي ألبسه الآن رغم عِلاّته، وأرسم ملامحه بخلطة الطبشور وملمّع الأحذية وألبسها مع نظارات ذات إطار عريض، ويَدٍ تحت الذقن في لقطة هي التي لازمت نصوصي كما تعرفون.

***

الآن أتأمل كتابتي وأتأمل وجهي فأبتسم.. كم تغيّرت الأشياء منذ "سمراء"!!.

فتماما -كمثل لعبة الملامح- صرتُ أدمن "لعبة الكتابة" بالموازاة وأروض أصابعي.. وعلّمتني الأيام التي ققضيتها في التدريب أن أتفاعل مع القلم بصدق. فليست الحروف في نهاية المطاف غير دفقات تتناغم ودفقات الإحساس لحظةَ الخط. وهذه الخلاصة رغم بساطتها الظاهرة فهي نتاج تجربة وممارسة وتفاعل وانفعالات حقيقية لتمارين مضنية لسنوات عديدة منحتني ارتياحا داخليا وهدنة مع المسودات...

وطبيعي أيضا أن جمالية الخط انتقلت بشكل حتمي إلى اشتغالي بالفرشاة، فقد صرتُ قبالة المرآة أرسم الملامح البارزة مع الظلال بترميد الجوانب والثنايا، وصرتُ أُقوِّم الأجزاء الدقيقة نهاية الحاجب أو انحناءات دقيقة على جانبي الأنف وامتدادات العينين بشكل أجمل وأدقّ وأذكى.. ثم أتأملني مليا وأخمّن:

من أُشبه!؟ ثم لا أجيب تحديدا. لأني لم أشأ أبدا أن أشبِه غيري، وبالضبط لم أشأ أن أشبه غير هذا المبدع الذي يسكن خيالي.

لكن الذي وقع هذا الصباح في الطريق إلى هنا لم أتوقعه أبدا..

كان الضباب يغطي مدينتكم التي لا تهدأ، ووددت أن أصل في الموعد كعادتي، فاستقلت سيارة أجرة وأسرعت متأملا شوارع المدينة التي تمرق عبر زجاج النافذة.

وصلت قبل لحظات..

وفي الطريق بين البوابة والقاعة، على طول الحديقة المرتبة بعناية، لم أتوقع الذي حدث.. ولم ينتبه أحد في الداخل أن مطرا عنيدا حاصرني، حاولت الركض لكنه كان أسرع وأقوى، ودخلت المعبر الخلفي للقاعة والمؤدي إلى المنصة ولا شيء صرتُ أملكه أو أفكر فيه غير هذه القبعة، واعترافاتي وأنتم.. "

رفع السيد سالم العامر قبعته، وصرخ الذين كانوا أقرب إلى المنصة وذعر الجميع وتدافعوا باتجاه الباب نحو الحديقة، فيما لا أذكر غير طيفِ صورةِ شبح كان قبالتي

بثقبين علويين وثقب في الأسفل يتحرك ليقول شيئا، وخليط ألوان سال على صفحة وجهٍ مسطح مثل بلاط.

ما لم يكن أبي يحكيه لي كي أنام

...الصحراء...

ليس للرمل صوت، والأفق هناك يتأبط حُمرتَه ويرحل باتجاه الخريف، فيما ظِلاّهما الطويلان يتباعدان لحظةً ثم يتقاربان.

صمْتٌ..

والرمل يتنفس ببطء ويغفو.

في الأمام أنثى تحمل وجها رخوا مثل طحالب البحر، عاكسَته الحياة كثيرا، وأساءت إليه. تُسرع غير آبهة بملاءتها التي صار طرف منها يتدلى ويلمس الأرض. خلفها بُنَيّة ربما لم تدرك

بعد أن الليل لن يلحقها لأن السير على الرمل يبطئ انحدار الشمس، وتركض لتلحق بالمرأة.

تتوقف المرأة لحظة ثم تلتفت، كانت البُنَية تقترب فلا تتكلمان؛ حين وصلَت قالت المرأة وأشارت بسبابتها لحَجَرة رمادية مثبتة تحت الرمل امتد عليها ظلاهما الطويلان بفعل الشمس المتدلية خلفهما:

- هنا. تذكري الطريق جيدا. شكرا لله لأني لم أنسَ المكان.. هنا. هنا بالضبط.

صمتت البُنية محدّقة في الحجرة الرمادية مدّة، والتفتت إلى وجه المرأة ثم إلى الحَجَرة، وغصّت بالسؤال، ولم تسأل: كيف يمكن للمرء أن يُدفن في قبرين في نفس الآن؟.. وانتصبت الحجرة مثل علامة استفهام كبيرة وسط امتداد الرمل والخواء في الصحراء.

قالت المرأة: "مرّت أكثر من خمس وعشرين سنة الآن.. لم أنقش على الحجرة أي تاريخ، لأن الوقت حينها كان أضيق من عين ابرة، ولأن الموتى يحتاجون عادة لوقت أطول داخل القبر كي يعتادوا عليه. الوقت مرّ وبامكانك أن تنقشي العبارة الآن".

انحنت البنية على ركبتيها ومسَحت القبر براحة يدها، فيما كان خليط السؤال والدهشة والدمع والضياع يرسم في أحشائها أخاديد تفجعها، وامتلأت عيناها بالدمع، فأحنَت رأسها إلى الصدر ونشَجَتْ..

زمن الحرب دائما هو زمن موجع، وامتداد الألم لما بعد إطلاق النار يجعل ذاكرة الحرب على الدوام ذاكرةً للخراب. ماذا؟ هل قلتُ "ذاكرة الحرب"؟، بالتأكيد ليس للحرب ذاكرة، لأن وقف النار هو بوابة أخرى تفتح "الإنسانية" و "الأخلاق" النار فيها علينا.

ما الذي يتبقى إذن؟

تحكي (الساردة): "كان الجاران يرسمان خيطا متصاعدا على مدى ثلاثين سنة باتجاه الأزمة آنذاك، ولم تكن الحالة آنئذ حالة انفجار حربٍ معلنة ولا كانت حالة سِلْمٍ، بل كانت شيئا آخر بين هذه وتلك، فيها من كل حالة ملامح كثيرة".

لكن الحرب اشتعلت رغم كل شيء.. وانطفأت أيضا رغم كل شيء. ومرّت الآن الثلاثون سنة تقريبا التي حكينا

خلالها أوجاع الريح حين هبّت تُعرّي العقلَ الصغير الذي أدْمَنّاه ببلادة.

يحكي الرمل للرمل عن أحذية الجند التي التصق جلدها بجِلد الأقدام، وتحكي الريح للريح حَرّ الزفير في أيام صفراء عطشى ومتعَبة.. ويحكي الجنود لبعضهم بين رصاصتين شريط الصوَر التي تعبُر مسرعة داخل الرؤوس..

وتحكي الصحراء للرائين..

وتحكي أنت..

وأحكي..

وتحكي البنيّة كيف التصقت بحَجرة وبكت، وسَرَت مرارةُ السؤال عن القبر في دمها..

وتحكي الساردة بادئة عملها الرتيب الغامض والموجع بالعبارة التي بقيتُ أردّدها بعد أن افترقنا:

"**ما أقسى حكاية الحرب بين رصاصتين!**"

وتحكي المرأة ذات الملاءة للبُنَيّة ولذاكرتها وللتاريخ.. وتحكي لكم:

"لم يكن شيء يعنينا غير العدد، هكذا كانت الأوامر.. وأنا – مثل الجميع هناك– كان عليّ التنفيذ بعينين مغمضتين وقلب مغمض وضمير يعبث بالجرح.

نجمع أشلاء الحرب، ونضم أطراف الأجساد إلى بعضها كي تكتمل الجثة من قِطع اللحم. نضعها في صندوق الخشب بلا غطاء. وفيما بعد – بوساطات دولية– يتبادل الطرفان جثث الجنود ويحتفي العالم والإعلام بلحظات التبادل.. أما نحن فما كان علينا غير ترتيب الأجزاء وسط نزيف الغربة والخوف والشوق إلى البلاد. وفي رؤوسنا عمل دائم وتفانٍ، وألف سؤال ، و..."

توقفت المرأة لحظة ثم كرّرت وهي تنظر إلى البُنيّة كلمة "تفان" مرتين. وأوشكت البنية أن تسألها عن شيء، لكن المرأة استرسلت:

"كانت الملابس مؤشرا قويا، ودليلا لجمع الأجزاء إلى بعضها، فأرقام الأحذية وألوان الملابس الداخلية تحت الزي العسكري تعيننا كثيرا، وفي الأخير نبحث في الجيوب عن رقم ما أو ورقة أو اسم نلصقه على الصندوق الخشبي وننصرف، إذ لا يتبقى غير تأشير الضابط على ورقة الموافقة ليغلق المكلّفُ

الصندوقَ بلوح أملس وغِراء ومسامير دقيقة، ثم يُنقَل اللصندوقُ إلى خيمة أخرى حيث يُختم بالرصاص ويصنّف كعمل تام."

في الحقيقة لم تكن البنيّة تسمع كل هذا الكلام، أو بتعبير أدق: لم تكن تعنيها حكاية الجند والحرب والأشلاء وعَلم البلاد وأدوار المسعفين والرمل والريح.. كان هناك فقط دوي رصاصة وسؤال لا يستقيلان عن ذهنها، وألمٌ لا يهادن دمعها الصامت.

صار كل شيء مثل فجوة عبَرتها إلى فراغ فظ لا يرحم، فراغ أحاسيس، وفراغ تاريخ، وفراغ ذكرى، وانتظرت المرأة في كل لحظة سؤال البنيّة: "أين أبي الآن؟" لكن البنية تسأل بانكسار:

- أين قبراً لأبي يسندني لأبكي وأرثي وأحكي له – كي تنام روحه بسلامٍ – ما لم يكن يحكيه لي صغيرةً لأغفو؟

وامتلأتْ عيناها بالدمع وانحنت إلى الحجرة المثبتة تحت الرمل ونشجتْ.

قالت الساردة:

"لم يكن أغلب الممرضين والممرضات يتقنون العمل تحت ضغط الوقت والضجر الذي يمنحه الحزن والغربة وإرهاق العمل المستمر، ولم يكن هناك وقتٌ لأطباء الفرق ولا للضابط المكلف كي يراجعوا الأعمال والنتائج قبل الأمر بالتصنيف.. ولكن – عكس ما ادّعى الجميع فيما بعد- كان كل شيء يحفر في أوجاع الإنسانية أخاديد الجرح بلا هوادة."

نظرت البنيّة إلى المرأة مباشرة وحدقت في عينيها لأول مرة، وتأملتهما مليا. كانت تشرب وحدها حزن القصة.

ورأت المرأة عيني البنيّة بلا دمع وسط حزن ملامح شاحبة تقريبا يمنحها لون المساء الذي تقدّم أكثر في الصحراء- تفاصيل غامضة. وكلّمتها بحزم وقالت ما لم تقله من قبل أبدا:

- أبوك .. شطَره لغم.

(لم يتغيّر شيء في ملامح البنية، ولم تتحرك. ولم تغيّر وضع جسمها النحيل. لا شيء.. لا شيء.)

- أقسم أني بحثت بجد، وسألت، واستعنت بكل زميلاتي وزملائي.. لكن حدث ما لم أحب. صدقيني.

سألت وتوسّلت للضابط حين عثرت على الشاهد أن يمنحني ترخيصا فرفض.. أقسم أني أصررت فرفض. وحين ألححت أكثر صرخ منفعلا وصمتُّ. ثم انصرفتُ.

(ظلّت البنية صامتة. تنظر مرّة للحَجرة ومرّة لامتداد الصحراء الفارغ الذي يلبسه المساء أكثر ويقترب من الليل رويدا.)

قالت المرأة:

– كم مرّة عثرنا على نصف رجُل، وأحيانا قِطَع جسد إنسان.. ولم يكن هناك وقت للتقزز أو للبكاء. شيء واحد فقط في الرأس يختلط بسؤال المصير هو "التفاني".

(تحركت البنت واستدارت.)

– وحين عثرتُ في جيبٍ خلفي لنصف رجُل على بطاقة الجندية، استغربت. فطوال عملي لم يكن أحد يضع وثيقة ما في جيب السروال الخلفي، ولا أدري هل كان وضعُ الوثائق في جيب السترة الأيسر جهة القلب أمرا مهنيا مُلزِما للجميع، أم خليطا من أحاسيس مشحونة تربط ذكرى الوطن والأسرة والهوية بجهة القلب تحديدا..!

قرأتُ الورقة فتألّمت..
كان ذاك أبوك."

(عادت البنية تنظر إلى المرأة بصمت)

– خشيت – بحق الرحمان– أن تختلط أمور كثيرة، وأن يحدث ما حدث بالفعل. فما وصَلكم في صندوق لم يكن أباك. ما وصلكم هو قِطع أشلاء جنود كُثر جُمعت وضُمّت في قبرٍ ليس قبر رجل واحد.

(كانت البنية قد بدأت تتخلص من عينين شاحبتين، وتغمد سيف الحرقة ببطء. تنظر على نحو فارغ للصحراء التي غطاها أوّل الليل، ولم تنظر للحجرة الرمادية المثبتة ولا لوجه المرأة.)

تحرّك شيء ما في الداخل وقرّرتُ أن لا يضيع شيء، وتشبّثتُ بآخر قطرة، ثم اتخذتُ قرارا وسط زحام الوقت وضغط العمل والتركيز الضيق، وحملتُ النصف السفلي للجثة بمساعدة زميلة إلى أبعدَ من التل قليلا حيث الرمل والصحراء والامتداد والمطلق، ودفنّاه. ثم عدت وأنا أتوسل إلى الله أن لا تضيع معالم الطريق في دماغي المثقل المتعب."

كان الليل يحاصر نظر البنيّة. وكانت الساردة تحكي عن زمن الانفصال والحرب التي اشتعلت والأسر التي مزّقها النزيف والجدار. وكانت المرأة تحكي تفاصيل أخرى عن القبر ورسائلَ في الجيب الخلفي للسروال.

وكانت الصحراء تحكي لليل..

ويحكي الرمل للرمل..

وتحكي الريح..

وتحكي أنت..

وأحكي..

والبنية تجمع شتات الزمن القديم في قبضة، وترحل من غير دمع "لم يكن القبر قبر أبي، ولا ذكراه. كان القبر تاريخ كتائب الجند وأشلائهم، وكان القبر تاريخ مرحلة بقِطَع كثيرة."

صمتت المرأة، فيما البنيّة لا تنظر للحَجرة. تتراجع للوراء مبتعدة عن المرأة ذات الملاءة، ثم تلتفت باتجاه ظلمة مديدة، وتطلق ساقيْها للريح وتختفي عن نظر المرأة..

للرمل صوت خطو يجري.

والمرأة تسمع صوت البنيّة في الظلام : "لن يسندني حجر، أو أحكي لنصف رجُل ما لم يكن أبي يحكيه لي كي أنام."

ثم يمتد الصمت والليل في الصحراء.

عودوا غدا

اتسعت دائرة الحضور المتحلق وكبرت، يغمرها خليط الصمت والرهبة.. واتسعت الحدقات مأهولة بالحيرة والانتظار.

كانت مقاطع الحكي موقنة بالسر والسحر، فيما الأبصار المشدودة تهتاج وتتلهّف.

قال الراوي:

(...هي الريح أيها الكرام إذن، هي الريح التي مدت الصوت المنشِد الفاتن، يبسط أرخبيل الوهج في قلب "سلمان". و"سلمان" كان يمد الخطو باتجاه الموّال، والموال يحط شقائق النعمان على زفرات "سلمان" المتعبة..

كان الصدى يملأ فاكهة القلب بالحنين، وكان امتداد في الفضاء يشعل الدم، يحتسيه سلمان ويسكر.

أيها الكرام،

سلمان لم يعرف قبل غير "لبانة"، كانت تقص من نبضاته زهرات عديدة حين يراها تهش على الماعز قرب الجدول الصغير. أحيانا يوقفها عند شجرة الأرز العتيقة يحدثها عن ضفائرها، عن بيت الطين الذي تسكنه، وعن قمر الصيف في البلاد؛ فتُغالب "لبانة" ابتسامة وترد:

- لم تعد تحمل الناي إلى هنا يا سلمان".

وتنطلق خلف القطيع..

يصمت الراوي حين يفيض الصمت في الحضور، كانت عناقيد الحكي توثقهم للرحيل، فيتأمل أعين المتحلقين ويوقن أن في الحروف متّسع، ومسلك شاسع للعبور.

قال الراوي:

هي الريح أيها الكرام إذن، فليس للموال ضوء، لا رائحة ولا بوصلة للمسير.

كان التعب يرسم سلّمه في دم سلمان، فيما الفضاء يشكل المساء من ظلمة تقترب وأنجم بعيدة، وها قد وصل بعد

ثلاثة أيام مدفوعا بقوة خفية، ومنشَدًّا للآتي المبهم، توقف عند منتصف النفق وراح يتأمل.. ثمة مفتاحان وبابان، أحدهما معتم ومحمي، والآخر عتبة العبور الكثيف. وعليه أن يختار.. أما نحن ـأيها الكرام ـ فيجمل بنا الافتراق الآن، وسنواصل،

فقط عودوا غدا..)

طوى الشيخ الملتحي لبدته وأدخل رجليه في البلغة الصفراء مستعجلا، لمّ الأوراق القديمة الملفوفة والمشدودة بخيط، ثم وضعها مع الأقلام والدواة في كيس، ووضع الكيس داخل محفظة جلدية كبيرة.

بعض الرجال ظلوا واقفين، ربما مشدودين للسحر نفسه. الآخرون تفرقوا...

وأنا اقتربت منه.

كانت ما تزال هناك لحظات قبيل رفع الأذان، وعليّ بعد الصلاة أن أسوي بعض الأمور المستعجلة، وسلسلة الأعمال الصغيرة الروتينية، لآخذ بعد ذلك قسطا من الراحة قبل أن أغادر مراكش.

قلت:

-"أرجوك.. أمامي الكثير من العمل، وغدا قد أرحل، ربما عند الفجر، ولن أكون هنا. لذا جئت إليك لتكمل الحكاية. أتوسل إليك.. ما الذي سيحدث خلف الباب الثاني؟ أريد أن ألج الباب الثاني، العتبة الكثيفة.. وأنا اخترته لأن شيئا في الداخل يدلني على أن "سلمان" سيختاره.. حتما من هنا سيدخل سلمان.."

لم يرفع بصره إليّ. ظلّ تفكيره مركّزا في أدواته، فصمتُّ..

سوّى أغراضه في محفظة الجلد الكبيرة وكرر:

"عودوا غدا.."

وانطلق.. لم يلتفت، وكان يسرع في المسير.

حسام الدين نوالي

- الإسم الحقيقي: الحسين والمداني
- مواليد 1977 بالمغرب.
- دبلوم مركز تكوين المعلمين- 1999
- دبلوم الدراسات الصحفية العامة- 2004
- بكالوريوس الاعلام والتواصل- 2009
- ينشر (القصة والشعر والنقد) في عدد من الدوريات الورقية والإلكترونية.
- جائزة الشعر في مسابقة "عتبات"- دورة 2003
- عضو حركة شعراء العالم –بالشيلي- 2005
- جائزة الاستحقاق في القصة القصيرة - مسابقة ناجي نعمان – لبنان-2008
- صدر له ديوان "مثلث العشق والقصيدة" سنة 2001 عن مؤسسة بابل- الرباط

"كانت مقاطع الحكي موقتة بالسر وبالسحر. فيما الأبصار المشدودة تهتاج وتتلهّف [...] . ويصمت الراوي حين يغيض الصمت في الحضور. كانت عناقيد الحكي توثقهم للرحيل، فيتأمل أعين المتحلّقين ويوقن أن في الحروف متسع. ومسلك شاسع للعبور

